



حين كان "كريستوفر كولومبوس" يحتفل باكتشاف الأرض الجديدة بعد عودته من رحلته الشهيرة، تهكم عليه أحد الحضور بقوله: ماذا فعلت؟ ركبت سفينـةً واتجهت للغرب! ويـاللـمـصـادـفـة... .

فأمـسـك "كـولـومـبـوسـ" بـبيـضـةـ كـانـتـ مـوجـوـدـةـ عـلـىـ المـائـدـةـ وـسـأـلـ الرـجـلـ: هـلـ إـمـكـانـكـ أـنـ تـجـعـلـ هـذـهـ بـيـضـةـ تـقـفـ مـنـتـصـبـةـ بـدـلـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـىـ جـانـبـهاـ؟

حاـوـلـ الرـجـلـ جـاهـداـ مـواـزـنـةـ بـيـضـةـ وـاـشـتـرـكـ مـعـهـ بـعـضـ الـحـضـورـ وـلـكـنـ دـوـنـ جـدـوـيـ، إـلـىـ أـنـ قـامـ "كـولـومـبـوسـ" بـإـيقـافـهـ بـعـدـ تـهـشـيمـ قـشـرـتـهـ، فـصـرـخـ الرـجـلـ لـمـ أـكـنـ أـعـرـفـ أـنـ تـحـطـيمـ القـشـرـةـ مـسـمـوـحـ!

فـأـجـابـ كـولـومـبـوسـ: إـنـ كـلـ الـمـسـائـلـ تـبـدوـ سـهـلـةـ بـعـدـ أـنـ تـرـىـ الـحـلـ الصـحـيـحـ! وـلـكـنـ الذـكـيـ وـالـمـبـدـعـ هوـ مـنـ يـجـدـ هـذـاـ الـحـلـ. وـالـيـوـمـ كـنـاـ نـحـنـ السـوـرـيـيـنـ عـلـىـ موـعـدـ مـعـ حـصـدـ عـشـرـاتـ بـلـ مـئـاتـ إـشـارـاتـ الـاسـتـفـاهـ وـالـاسـتـنـكـارـ لـمـ آـلـ إـلـيـهـ حـالـ دـارـيـاـ وـالـوـعـرـ، وـزـادـوـ حـسـرـةـ أـهـلـهـاـ بـرـمـيـهـ لـلـسـؤـالـ: هـلـ هـذـاـ أـفـضـلـ لـكـمـ مـنـ الـحـالـ قـبـلـ الثـوـرـةـ!

بـلـ وـتـجـاـزـ الأـمـورـ حـدـ الـمـعـقـولـ بـمـاـ يـجـريـ فـيـ حـلـبـ مـنـ حـمـلـةـ تـدـمـيرـ وـاستـئـصالـ، وـقـدـ بـاتـ وـاضـحـاـ أـنـ مـاـ يـرـميـ إـلـيـهـ النـظـامـ سـلـبـ حـلـبـ كـلـهـ إـلـىـ جـوارـهـ لـيـنـحـسـرـ الـثـوـرـاـنـ فـيـ إـدـلـبـ فـقـطـ تـمـ تـفـصـيلـ الـخـيـارـاتـ فـيـ مـقـالـ سـابـقـ. فـتـتـعـالـىـ الـأـصـوـاتـ بـتـوـحـدـ الـكـتـائـبـ وـبـنـذـ الـفـرـقةـ وـكـأـنـهـ يـشـكـلـ حـلـأـ لـلـمـأـسـاةـ الـتـيـ نـعـيـشـهـاـ.

يعـتـقـدـ الـكـثـيرـ مـنـ أـصـحـابـ هـذـاـ طـرـحـ أـنـهـمـ تـوـصـلـوـ لـنـتـيـجـةـ تـحـتـاجـ إـلـىـ تـفـكـرـ وـحـصـافـةـ، بـلـ وـتـظـهـرـ الـخـيـارـ الـذـيـ أـدـىـ إـلـىـ هـذـاـ

الطريق بالسازج أيضاً وحالهم لا يختلف عن حال صاحب كولومبوس على الإطلاق، فلو انكشفت الأستار ورأى أهل داريا وحلب مثلاً هذه النتيجة قبل خروجهم على النظام الفاشي لاختلت كثير من القرارات المصيرية، وهذه الحقيقة لاتحتاج إلى عقري ولا إلى حذق يستنتج النتيجة اليوم بعد أن وقعت!

عند كل مفترق طرق على مدى السنوات الست الماضية، كانت داريا سباقاً باتخاذ الحل الأمثل المتن والحازم بنفس الوقت وبإجماع الجميع أن سير الأحداث في داريا كان دوماً وفق أفضل المتاح، بل وربما كان جيداً أكثر من اللازم بإطلاق معارك نصرة للمدن الأخرى حملت المدينة المزيد والمزيد من الأعباء.

لاداع لإجراء كشف حساب لداريا ولا حتى لحلب ولكننا اليوم بحاجة لكشف حساب أكبر، ولنرى كيف نصبت شعوب أخرى البيضة على رأسها علنا نغطي أخطائنا فنستفيد منها في المستقبل، فمن الواضح أن النظام سيبقى له نصيب كبير في سوريا، وبقاء النظام يقتضي بقاء المعركة لأنه امتهن القتل والإجرام

هل كان بالإمكان أفضل مما كان؟ أو لسؤال السؤال بطريقة أخرى:

بماذا قصرنا حتى تم هزيمتنا؟

في بداية التسعينيات اندلعت حرب البلقان، وكانت معطيات الحرب وكأنها مفصلة لإحراق البوسنة بمن فيها، الطرف الصربي مدحوم ببقاء الاتحاد السوفيتي المنهاج، بعد أن ورث الصرب الجيش اليوغسلافي العتيق، في مقابل الطرف الكرواتي المدعوم أوروباً لأسباب طائفية وسياسية، حملت له الأسلحة من ألمانيا وفرنسا ليتمثل المصالح الأوروبية في البلقان، والطرف الثالث البوسيوني المسلم الذي ولد يتاماً.

كان الخلاف الكرواتي الصربي على تقاسم البوسنة المسلمة على اعتبار أن ابتلاعها مسألة وقت لا أكثر. انتشرت قوات الأمم المتحدة على السواحل لمنع تدفق الأسلحة إلى البلقان ليكلا تستعر الحرب كما زعموا، بينما كان الهدف من تهريب السلاح للبوسنيين فالحدود البرية وخطوط إمدادها مفتوحة للصرب والكرواتيين، على عكس البوسنيين. إذاً نحن أمام حرب تواطئت فيها القوى الكبرى وبقية الأطراف المتنازعة على إنهاء البوسنة بل وأتوا بخطاء دولي لتسريع العملية ولكن نهاية الحرب حملت استقلال البوسنة بحدودها الكاملة، فماذا قدم البوسنيون زيادة علينا نحن السوريين!

بداية سقف أمام أوجه التشابه بين الحالتين:

قوة ضعيفة شعبية بمواجهة جيش منظم ومسلح

الطرف الصربي مدحوم روسياً أي بقوة عظمى (كحال النظام السوري)

الطرف البوسيوني غير مدحوم من أي دولة عسكرياً (كحال الثوار السوريين)

المجتمع الدولي لا يأبه بالمقتلة في البوسنة كما هو الحال في سوريا

أظهر البوسنيون استبسالاً في مقارعة جيش منظم كما فعل السوريون

سقط ربع مليون شهيد بوسني أي ما يقارب نسبة 10 بالمائة من السكان نتيجة المجازر الصرب، كما سقط مئاتآلاف الشهداء في سوريا نتيجة مجازر النظام

هدف الحرب الصربية إبادة البوسنيين والسيطرة على بلدتهم كما هو حال هدف النظام السوري.

باختصار كان البوسنيون يحملون قضية محققة لوحدهم ضد قوة عظمى كحال السوريين اليوم، بينما تميزت الأزمة البوسنية بأمور مختلفة عن السورية اليوم:

نقاط التماส واضحة فالبوسنيون في جهة والصرب في الجهة الأخرى! على عكس الثورة السورية ذات النقاط المتداخلة. وجود جسد سياسي للبوسنيين على عكس الثورة السورية، فكان للبوسنة حزب سياسي ورئيس وزراء ووزير خارجية.

تحرك الأمم المتحدة مباشرة ضد البوسنيين بنشر قواتها على الساحل لمنع وصول السلاح إليهم فكان حصارهم أشد نسبياً من حصار الثورة السورية في بداياتها ولكن الحصار علينا وصل لمراحل أصعب مما شهده البوسنيون. لاشك أن الرجال والقتال والاستبسال هم عوامل مشتركة أيضاً كما أن الشحن الديني والاجتماعي كانا حاضرين بقوة وكانا خلف الصمود الأسطوري للشعبين في حربهما -خاض مليوني يونيزياني الحرب على مدى ثلاث سنوات مخلفين حوالي ربع مليون قتيل-. فما الجديد عند البوسنيين، وماذا قدم البوسنيون زيادة علينا لنجوا من حرب الإبادة تلك بأقل الخسائر:

حليف دولي قوي:

حظي البوسنيون بجسد سياسي محنك فهم اللعبة الدولية، وعلم أن مفتاح النجاة مرهون بوجود حليف دولي قوي يحمي ظهرهم في المحافل الدولية كما حمى الروس والصينيون النظام بالفيتو، وكما حمى الأمريكيون إسرائيل بنفس الطريقة. وفي نفس اليوم الذي أعلن فيه البوسنيون استقلالهم، أعلن الصرب الهجوم، وكان وزير خارجية البوسنة في أمريكا إثر توجهه إليها لطلب الاعتراف بالجمهورية الوليدة، وما إن أنهى مهمته حتى وجد نفسه أمام مهمة أصعب وهي كسب أمريكا كحليف، خاض هذا الرجل ويدعى "الحارث سيلازيتش" حرباً دبلوماسية شعواء فبدأ بوسائل الإعلام، وتوجه للصحف الكبرى طالباً منها نشر أخبار حرب البلقان وفق الرواية البوسنية لا الصربيّة! وتسمية الأمور بسمياتها، فالرواية البوسنية تصف الحرب على أنها عدوان على جمهورية مستقلة، وهي تختلف عن الرواية الصربيّة التي وصفت المعركة على أنها تحرك لقمع تمرد انفصالي، لم يملك "الحارث" سفارة بوسنية في أمريكا وكان يجري اتصالاته من كبينة في الشارع أحياناً، وتمكن من استئصال إحدى كبرى الصحف هناك وهي "النيويورك تايمز"، فبدأت تبث أخبار الشعب البوسني المطالب بحربيته وكرامته مما شكل تعاطفاً عاماً ونفساً مؤيداً في أمريكا للبوسنيين ورغم تمكّن الصرب من استئصاله صحف أخرى كـ"واشنطن بوست"، فقد مال الكثير من رجالات أمريكا للبوسنيين، ودعا "بل كلنتون" في أكثر من مناسبة لإنتهاء حرب البلقان، ولكن أمريكا لن تتدخل لنشر الديمقراطية بالمجان!، كما أن الأطراف المعنية لم تبدي اهتماماً بسلام يشمل استقلال البوسنة فترك البوسنيون يواجهون آلة القتل لوحدهم مدعومين بتحسرات وأمانى الحكومة الأمريكية!

الخلاصة: لم يملك السوريون تعاطفاً دولياً رسمياً ذو قيمة أبداً، فتركيا دولة متوسطة مقارنة بروسيا والصين! كما أن قطر لا تصنف مع الدول التي قد تشكل حلفاً، وما عاب الجسد السياسي للثورة متمثلاً بالمجلس الوطني حينها عدم القيام بأي جهد دبلوماسي لكسب هذا حليف! رغم أن المناخ كان ملائماً لكسب فرنسا وحتى ألمانيا على الأقل!، وكانت وسائل الإعلام العالمية تبث الأخبار وفق مزاج غرفها ومراسليها، دون مرجعية سياسية ولا دبلوماسية رغم وجود مجلس من المفترض أن يسد هذه الفجوة

عرض القضية:

أجمعـت المنابر البوسـنية على عرض القضية في العالم على أنها: مأسـاة شـعب البـشـناق المـطالـب بالـاستـقلـال وـتـقرـيرـ مـصـيرـه بـنـفـسـهـ، وـالتـحرـرـ منـ الـحـكـمـ الـصـرـبـيـ الفـاشـيـ الـديـكتـاتـوريـ، وـابتـعدـ الدـبـلـوـمـاسـيـونـ وـالـإـعـلـامـيـونـ الـبـوـسـنـيـونـ عنـ تصـوـيرـ حـربـهـمـ علىـ حـقـيقـتهاـ الطـائـفـيةـ البـشـعةـ بـأنـهاـ حـربـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ!

فالإنسان العادي في أمريكا وأوروبا لا يأبه باقتتال بين مسلم وبروتستانتي على أساس ديني خاصّةً إذا كان المقتول مسلماً، فلا تلقى هذه الأخبار أولوية ولا اهتماماً حتى، بينما يأبه نفس الإنسان باقتتال بين عرق يطالب بالاستقلال وآخر يريد أخذ أرضه، وحتى في لقاء مع رئيس وزراء البوسنة بعد انتهاء الحرب، كان يصحح للمذيع جملة "قتلهم لل المسلمين في البوسنة" إلى "قتلهم لشعب البوشناق" وحين تململ المذيع من ذلك أجراه:

"نحن مسلمون وفخورون بإسلامنا، ولكن قتل مسلم في البوسنة هي قضية المسلمين الذين يواجهون ربما ما هو أقسى، بينما

قتل رجل من البوشناق يطالب بالاستقلال هبة قضية عالمية!"

واستمرت البعثات الدبلوماسية والصحفية بالتجول بين عواصم العالم طلباً للتأييد والدعم، ولم توقف هذه الحملات حتى انتهاء الحرب.

بينما قدم البوسنيون قضيتهم في العالم الإسلامي على صورتها الحقيقة، فإنها استئصال للمسلمين، فلقد تميز الخطاب البوسني بالإتزان ومرااعة الشريحة المستهدفة للحصول على التعاطف المجيء، لا المشاعر الجوفاء! وربما يطفو إلى السطح السؤال البديهي، ولماذا نأبه بالرأي العام العالمي؟ ويكون الجواب بالانخراط في اللعبة السياسية التي غالباً ما تكون قذرة!، فمن مصلحة "بل كلنتون" أن يقدم نفسه لشعبه بأنه صانع السلام في البلقان، طالما أن قضية البلقان لها أذن صاغية في الصحف والوسائل الأمريكية، بينما لا يهمه على الإطلاق أن يكون صانع سلام إيران مع عرب الأحواز! فهكذا قضية لن تأتيه ولا بصوت انتخابي إضافي واحد!

الخلاصة:

أخطأت كيانات الثورة السياسية كثيراً بتقديمها للعالم، بل لم تأبه على الإطلاق وانشغلت بتحصيل المقاعد والمكاسب، فحين قررت أمريكا دعم الإنفصاليين من حزب الـ PKK شكلت جيشاً سمه جيش سوريا الديمقراطية، لتنافقه جميع المنابر الإعلامية بهذا الاسم، فيحظى بقبول عام، كما أكدت روسيا على حربها للإرهاب، وتتعهد قنوات الأخبار المؤيدة للنظام بلصق اسم "داعش" و "النصرة" على أي عملية عسكرية يقومون بها، وسمى نظام الأسد المحكمة المختصة بقمع النشطاء محكمة الإرهاب، بينما على الضفة الأخرى كانت جميع منابرنا الإعلامية تثبت التهم والإدعاءات التي يدعى بها حلفاء النظام!، فكيف يمكن أن تعرض للعالم أن جيش سوريا الديمقراطية إرهابي، وأن فصيلاً اسمه مثلاً "إقامة شرع الله" هو فصيل تحريصي صاحب قضية محققة!

كل تلك الأخطاء وترامكها قطعت أي فرصة لأي أحد من دعمها، خاصة من الدول الكبرى أو ذات الوزن الدبلوماسي.

تحمية الخلافات- الرجل المناسب في المكان المناسب:

إبان إعلان البوسنة استقلالها، كان "علي عزت بيجوفيتش" رحمة الله رئيساً، ومن ثم عين "الحارث سيلاديتش" رئيساً للحكومة، وعمل الرجال بتناغم مذهل خلال سنوات الحرب العجاف، ولكن ما إن انتهت الحرب حتى خرج "الحارث" من حزب "علي عزت"، وأنشأ حزباً جديداً ونافسه على منصب الرئاسة، ولم يلتقي الرجال في الحياة السياسية بعدها أبداً، وعلق "الحارث سيلاديتش" على هذه القضية مقرأً بوجود خلافات جوهرية بين الرجلين، فلقد كان الحارث رافضاً للبيان الإسلامي الذي أصدره الرئيس علي عزت، وكان لكل من الرجلين نظرة مختلفة للقضية البوسنية، لم يمنع هذا الخلاف الجوهرى الرئيس "علي" من تعيين "الحارث" رئيساً للحكومة، كما لم يمنع الأخير من العمل بأخلاص وجذب حتى حمل لقب اليهودي للرئيس علي!

وختم الحارث تعليقه على الخلاف بقوله: "لقد كنا في حالة حرب ولمكان للخلاف بيننا والصربيين يقتلون شعبنا"

الخلاصة:

أعتقد أن هذه النقطة تصيب الجسد السياسي الثوري السوري في مقتل! كما تصيب تجارياً عربية أخرى بنفس المتعلق بذلك، نحن أئم كيانات سياسية تطغى عليها منظومة الفساد والسرقات، وتعيين الأقارب، نحن أئم كيانات سياسية يقول أحد أعضائها ردأ على تهمة السرقة: "شو مافي غيري عم يسرق من الائتلاف!", ويقدم النظيف الوطني منهم خطة إنفاذ يعرضها في المحافل الدولية ترتكز على تسمية نفسه رئيساً لسوريا.

نحن أئم كيانات توظف سائقاً براتب 1500 دولار شهرياً، بينما يكون ردها الرسمي على طلب ثوار حلب تزويدهم بجرافة

لرفع الأنفاس: "لا يوجد لدينا مال".

قيادة عمليات موحدة:

خلال سنوات الحرب الطوال، تطوع كثير من المسلمين والمعاطفين للالتحاق بالجيش البوسني، ولقد وُثقت الأخبار قتال عدد من صرب البوسنة المسيحيين مع الجيش البوسني ضد الغزو الصربي في سراييفو.

قبلت قيادة الجيش البوسني المتطوعين بكل امتنان ولكنها اشترطت أن يأتوا أفراداً لا جماعات، وخصص البوسنيون مركزاً موحداً لاستقبال المتطوعين، وأعدوا فيه معسكر تدريب يشرف عليه البوسنيون، فكان ذلك المركز يخرج جنوراً مجاهدين يقاتلون وفق الأجندة البوسنية، وتم إعادة كل مخالف لهذه الشروط، وشهدت المعسكرات حالات عودة كبيرة ممن أتى بأفكار وإيديولوجيات لا تتوافق مع الأجندة البوسنية في المقاومة، وتم تذويب القادمين بجسد الجيش البوسني، وتم منهم الجنسية البوسنية إبان انتهاء الحرب - حصلت مؤخراً أزمة بخصوص هؤلاء بظهور دعوات لتجريد البعض منهم من الجنسية البوسنية ثم تم حل الأزمة لاحقاً.

ومن الأمثلة التي حصلت خلف الكواليس، أن جندياً بوسنياً كان يقاتل بجوار عربي، فأدت شابة لزيارة البوسني تبين لاحقاً أنها صديقة الحمية وكانت أوروبية المظهر لا ترتدي الزي الإسلامي، مما أثار حفيظة العربي الذي أتى لنصرة أخوانه المسلمين، ولم يمس قائد المجموعة الارتباك الحاصل، وقال للعربي: "في البوسنة كما في أي بلد يوجد الملائم والمقصري والعاصي، وكل منهم الحق في الدفاع عن أرضه وعرضه وشرفه وكرامته"، القصة ذكرها المجاهد العربي الذي تمكّن لاحقاً من تقبيل الاختلاف بينه وبين زميل السلاح إلى جانبه!

وربما يكون رفض البوسنيين أي مساعدة إيرانية أكبر دليلاً على بعد نظرهم وقرارتهم الواقع العسكري بحكمة وحصافة عالية، فرفضوا الدعم الإيراني حملة وتفصيلاً خشية من عواقبه.

الخلاصة:

حافظت القيادة الموحدة على وحدة الصف، وسدت طريق الأجنادات الخارجية، فألف جندي مثلاً بسلاح متوسط تحت إمرة القيادة، خير من ألفين بسلاح ثقيل تحت إمرة دولة أخرى، لقد وقعنا كسوريين في هذا المطب الشائك الذي كان من الصعب جداً تجاوزه أو الانتباه إليه، فبات على الأرض السورية جنود سوريون أوفياء ووطنيون ويملكون السلاح ولا يملكون نصرة هي بجوارهم تحت تهديد قطع الإمداد، وهذا أقل ضرر حصل، مقارنة بجنود تحولوا لمليشيات ومرتزقة تقاتل من أجل المال.

لا تهاون - تعامل مع معطيات:

طرق البوسنيون كل الأبواب للحصول على سلاح، ونشرت الأمم المتحدة طوقاً بحرياً على البلقان بحجّة منع السلاح من التدفق إلى أطراف النزاع، بينما كانت الحقيقة منع السلاح من الوصول للبوسنيين خطوط الإمداد مفتوحة للصرب والكردات برأ، وقال "طرس غال" الأمين العام للأمم المتحدة وقتها حين سُئل عن أزمة البلقان: "لدينا قضايا أهم، وهو يكتبون فائضاً من التاريخ!".

اتفاق القوى العظمى على الوضع الحالى ترك البوسنيين لمصيرهم المحتوم، فمن الواضح أن القوى الأوروبية الكبرى كانت ترى تقاسم صربيا وكرواتيا للبوسنة هو الحل!، والخلاف كان على حصة كل دولة منها.

في حين كان البوسنيون يحاولون الحصول على السلاح بأى طريقة، وطرقوا باب الكثير من الدول العربية والإسلامية، وحتى دول سوق السلاح السوداء.

وتمكن البوسنيون في النهاية من الحصول على شحنتي سلاح قلبـت وجه المعركة بعد أن خسروا أكثر من ثلاثة أربع دولتهم،

الشحنة الأولى من دولة لم يتم التصريح عنها –أعتقد شخصياً أنها خليجية– والثانية من باكستان، احتوت الشحنة الباكستانية على مضادات دروع وتمكنت الشحنة من اختراق الطوق البحري الأممي لتوقف تقديم الآليات الصربية إلى داخل العاصمة سراييفو.

وأظهر الصرب واقعية لا توصف خلال أزمة المطار، حين اعتقل الجيش الصربي الوفد الرئاسي البوسني! فاعتقلوا رئيس البوسنة "علي عزت بيجوفيتش" شخصياً مع ابنته ومرافقه فيبعثة الدبلوماسية العائد من مفاوضات لشبونة. حادثة كهذه كانت كفيلة بإنهاء أي حرب في أي بقعة أخرى من العالم، أن تكون محاصراً وخسرت أكثر من ثلاثة أرباع دولتك، وتحصن في العاصمة، ويعتقل جيش العدو الوفد الرئاسي بكامله وعلى رأسهم الرئيس!، واجه البوسنيون الحادثة بحكمة عسكرية عالية، فلم ينادوا الأمم المتحدة لإطلاق سراح بعثتهم الدبلوماسية، ولم يخنعوا تحت عبارات الاستسلام بحجة المصير المحتم والقضاء والقدر، فضربوا طوقاً على المطار، وأتى ردهم الوحيد على حادثة الاختطاف على لسان القائد العسكري حول المطار: "لقد حاصرنا المطار، وفيه آلاف من الجنود الصرب، لقد فخخنا المجري تحت الأرض، فإما أن تطلقوا سراح الرئيس ومن معه من الوفد كاملاً وإما ستتاثر جثثكم لتصل إلى قمم الجبال المجاورة".

هدى الصرب بقتل الرئيس، وبدأت الأمم المتحدة التي تواطئت لحصول هذا الكمين –إثر غياب قوتها التي من المفترض أن ترافق الوفد إلى العاصمة سراييفو– بنشر رسائل استنكار اعتقال الصرب للوفد البوسني، واكتفت بذلك الاستنكرات التي تحرفها منذ الأزل، في حين وضعت القوات البوسنية الجيش الصربي المحاصر في المطار أمام خيار واحد: الموت أو إطلاق سراح الوفد.

وانتهت الأزمة بإطلاق الجنود الصرب سراح الوفد مقابل تأمين خروجهم سالمين من المطار، ففي النهاية رفض الصرب أوامر قيادتهم بتقديم أرواحهم مقابل قتل الوفد البوسني!، وأصر ضابط المطار الصربي على إيجاد حل لسلامة جنوده وكان الحل بإطلاق سراح الوفد.

وعلى صعيد آخر، تمت زراعة شرف المنازل في سراييفو لتأمين الطعام، كما تم وصل سراييفو بمطارها عبر نفق بات أثراً تاريخياً إذ أن الطريق البري بات ساحة معركة غير مأمونة، وينذر أن جميع المهام المدنية قامت بها النساء لانشغال الرجال بالقتال.

الخلاصة:

إن أهم ما يميز البوسنيون هنا تحررهم من النصوص والأساطير الدينية، وتعاملهم مع الواقع وفق معطياته فقط مطبقين روح الدين الإسلامي، بالأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم التوكل على الله وكأنها ليست بشيء، وبعد حصارهم المطار ألقى الله القلق في نفوس الجنود الصرب فيه وأطلقوا سراح الوفد، ولو حدثت قصة مماثلة في سوريا –لن ذكر مثلاً لقصة سورية لكي لا ننكأ جروح الخلاف– لوقع السوريون في خلاف هائل عن الحكم الشرعي في هذا حالة، وما هي حكمة الله من وقوع الوفد في الأسر، والوفد وقع في الأسر لأنه ذهب لمقاومة الكفار وطلب النصر من غير الله، والوفد وقع في الأسر لأنهم رؤوس فتن جلبوها على رؤوس البوسنيين الذين "كانوا عايشين"، والوفد وقع في الأسر لأنهم لا يطبقون شرع الله في البوسنة فزوجة الرئيس "بيجوفيتش" ليست محجبة، والوفد وقع في الأسر لأنهم لم يعدوا العدة المادية ولا العقائدية الالزامية لمقارعة هذا جيش، وعشرات التأويلات التي يجعل رجال النظام يستلقون على ظهورهم ضحكاً، فمقارنة العسكر تحتاج إلى عسكر لا إلى رجال دين! ومقارنة السياسيين تحتاج إلى سياسيين!، لا إلى رجال دين!، وتشترك الشيشان مع البوسنة في هذه النقطة، فكان سير الأمور العسكرية وتنفيذها يأتي من عند "جوهر دودايف" و"شامل باسييف" لا من عند رجال الدين!، لذلك أخذت الحرب الشيشانية والبوسنية منحى مختلفاً عن السورية!

قراءة الواقع الدولي:

في لقاء تلفزيوني من رئيس البوسنة الأسبق "الحارث سيلازيتتش" الذي كان رئيس الحكومة خلال الحرب، قال المذيع: "وبعد قتال دام لسنوات وصمد أسطوري، كيف جائكم الفرج ومن أين؟"

لا شك أن الجواب المرتقب منا كشعوب عربية وإسلامية لا يحيد عن "من عند الله عز وجل"، وهذا الجواب صحيح إجمالاً، فالعدو الصربي جاء من عند الله كما الفرج جاء من عند الله، أما عن التوفيق والاختيار فهو بأيدينا!

أجاب الحارت على السؤال: أتي الفرج بوصول "جاك شيراك" إلى سدة الحكم في فرنسا!

اعتراض المذيع وقال: يعني لو لم يأتي جاك شيراك لما أدمكم الله بالنصر؟

أجاب الحارت: كان من المرجح أن نستمر في القتال لسنوات أخرى قبل أن ننداعي وتقى هزيمتنا وتدخل القوات الصربية إلى سراييفو!

كنا قد ذكرنا سابقاً أن البوسنيين استمالوا الرأي العام الأمريكي، ورغم أن "كلينتون" اعتبر إحلال السلام في البلقان ورقة دبلوماسية وسياسية قوية في ملفه، إلا أنها كانت من الرفاهية بمكان!، فلا مبرر للنزول إلى حرب معقدة دون شريك أوروبي قوي يرغب في إنهاء الحرب!

فهم البوسنيون أنهم بحاجة لشريك أوروبي يرغب في إنهاء الحرب والتوقف عن إعطاء الفرص للصرب لإبادة البوسنيين، حاول البوسنيون كثيراً دفع فرنسا وألمانيا وحتى بريطانيا للتحرك لوقف العدوان، إلا أن بريطانيا نأت بنفسها عن الأزمة لبعدها، وألمانيا حافظت على كل مصالحها عن طريق دعم الكروات الطرف الشمالي في الحرب، أما فرنسا وقتها لم تجد أي داع لمجاهدة موسكو الداعمة للصرب، بل أعجبت فكرة الحرب الرئيس الفرنسي وقتها "فرانسوا ميتران"، الذي لعب دوراً دبلوماسياً لتعطيل الجهود الدولية والإعلامية حين قام بزيارة لسراييفو وسط الحرب لتغطي وسائل الإعلام هذه الزيارة تحت عنوان "لا شيء في البوسنة!" رغم أن الزيارة تمت بواسطة طائرة مروحية لانقطاع الطرق، والقصف كان يطال العاصمة بكاملها، وذكر قادة البوسنة في أرشيفهم أن "ميتران" فور نزوله من الطائرة توجه للوفد الذي يستقبله وقال: "جميعكم مسلمون! ولا يوجد أي شخص غير مسلم بينكم".

وخلال سنوات الحرب لم تتوقف الجهود الدبلوماسية البوسنية عن السعي لاستماله قوة أوروبية، وكان "جاك شيراك" الرجل المنشود بلاشك، حيث سعى شيراك منذ توليه الحكم إلى إعادة الوزن الفرنسي إلى الساحة الدولية، لظهور فرنسا كقوة عالمية عظمى من جديد - جميعبنا يذكر شيراك كرجل قوي، بينما نسخر من ساركوزي وهولاند! - وكان في إيقاف حرب البلقان أول دليل على صعود فرنسا من جديد.

أرسل البوسنيون الوفود إلى فرنسا، وقدموا ضمادات بإقامة دولة ديمقراطية عادلة فور انتهاء الحرب، بل وأظهروا استعدادهم لقبول قوات أجنبية لضمان ذلك، وفي هذا قال "علي عزت بيچوفيتش" الرئيس البوسني خلال الحرب حين سئل عن القوات الأجنبية على أرض البوسنة: "نعود بالله من عدم وجودهم ، و الويل للناس من وجودهم".

ويقول معبراً عن قبول وجودهم مكرهاً رغم إدراك مساوئهم : "إذا كان هناك شيء أردته و كرهته في الوقت ذاته، فهو وجود قوات أجنبية في البوسنة، ولكن أي رجل عاقل إذا خُير بين العدو وبين البحر العميق فإنه سيختار أقلهما شرّاً، فهل يُعد وجود الأجانب أمراً سيئاً لأنهم سلطة دون رقابة؟ و كل سلطة دون رقابة ستتحول حتماً إلى إرادة ذاتية و قد يحصل هذا في البوسنة أيضاً،

لقد كنا نواجه اختياراً دراماتيكياً: إما أجانب (أمريكيون، فرنسيون، بريطانيون) و إما متطرفون محليون، إما العنجية الأجنبية و إما العنف غير المحدود للمتطرفين والإنصاليين الصرب والكروات، إنهم أمران أحلاهما مرّ و لم يكن هناك خيار ثالث، و فضلت وجود أجانب لا يحبونك على وجود محليين يكرهونك".

و هذه عبارات تلخص موقفه منهم و تبرير قبول وجودهم عبر اتفاقية "دایتون" التي هي بحد ذاتها كانت اتفاقية سلام مرّ فُرضت على شعب البوسنة كما وصفها.

ما تم في البوسنة وقتها لخصه "الحارث سيلازنيتش" حين سأله أحد الصحفيين: "لقد قبلتم باتفاقية ساوت بين الضحية والجلاد، وسمحت لقوات أجنبية بالدخول إلى أرضكم بل وبشبه وصاية غربية عليها!" فأجاب: "إنها مسألة نجاة وليس مسألة انتصار!"

أدرك البوسنيون أنه لا انتصار قادم في تلك الحرب وفق المعطيات الحالية، فليس من الممكن أن تنتصر على الجيش الصربي ورث الجيش اليوغسلافي العتيق المدعوم من روسيا لوحده! بقوات محلية وأسلحة محلية وبلا حليف دولي ولا طرق إمداد! وكم نحن بحاجة اليوم كسوريين لفهم هذه المعادلة البشعة إن وصول "جاك شيراك" للحكم كان كلوح خشب مر على شخص عالق على جزيرة، وكان عليه جلبه وصناعة سفينته منه، وكان بإمكانه تركه يمر والبقاء عالقاً

الخلاصة: مرت على الثورة السورية عدة مفاصل كان من الأجدى استغلالها، من انتخابات عام 2014 لوصول الملك السعودي الجديد الذي أبدى في البداية استعداداً لعمل شيء ما، لانقلاب مصر، لاستلام "كوفي عنان" منصب المبعوث الدولي، لتفجير خلية الأزمة، لانشقاق رئيس الوزراء "رياض حجاب"، لتسريب ملفات قيسار، وصولاً لمجزرة الكيماوي التي حركت المجتمع الدولي وسببت إحراجاً كبيراً للعالم عامة والأمريكا خاصة التي اضطرت للقيام بضربة عسكرية خليبة للنظام! والآن باتت الانتخابات الأمريكية قريبة، لا أدرى كيف كان من الممكن الاستفادة من هكذا أحداث، ولكن توتر وتربّب وهلع النظام كان يدل على خطورة تلك المنعطفات، ما سنذكره أدناه لم نشهد أي عمل سياسي كبير من عشرات المعارضين أصحاب البدلات والكرافات الذين من المفترض أن يمثلوننا!.

خاتمة:

اجتمع الروس والأمريكان، وما إن انفض الاجتماع حتى بدأ دك حلب!، ولا أدرى لماذا لاترى نحن كسوريين أننا سلمنا أهم جبهة بدون قتال، وتركناها بدون أي تردد، والحملات العسكرية تنتهي من حيث تبدأ، من غرف الاجتماعات! إن القتال على الأرض والصمود هو مفتاح الجهد الدبلوماسي، ولن ينفع قتال وصمود سنوات دون هذا الجهد الدبلوماسي. من بين تلك المعممة لا يمكن أن نقول أنها نملك شيئاً من الجسدي السياسي والدبلوماسي للثورة حالياً إلا الهيئة العليا للمفاوضات.

وأعتقد أن الخبر المascal في هذا المقال يوضح مدى أهمية إقناع الجهات الدولية بالقضية! ولقد كنا ولازلنا ننخر في جسد ثورتنا من حيث لاندري، وفي الوقت الذي تعلق كثير من الآمال على جيش الفتح لإنهاء مأساة حلب الحالية، تستعر المعركة الحقيقة في العاصمة العالمية في غرف الاجتماعات، ولكن للأسف دون حضورنا خياراتنا السياسية سهلة وبسيطة، معظم الكيانات الثورية السابقة تفوح منها روائح الفساد، ولن يضع أي أحد يده في أيديهم، فلن يثق العالم لا بالائتلاف ولا بالمجلس الوطني، ولم يبق إلا هيئة المفاوضات العليا لم تتسع سمعتها بعد، كما أن رأسها الدكتور "رياض حجاب" يملك مقومات رجل الدولة لأنه كان رئيساً للوزراء بالفعل.

يتوجب علينا دعم هذه الهيئة بل وتفويضها حقاً كما فوض ثوار داريا وفهم المتواجد في دمشق لاتخاذ ما يرونـه مناسباً، والدعم ينبغي أن يكون سياسياً وشعبياً ومالياً لكي تبرز الهيئة ككيان ممثل للشعب السوري فعلاً، عندها قد نجد مقعداً في تلك الغرف التي يتم تقرير مصيرنا فيها!

لقد غاب العمل السياسي والدبلوماسي كلياً عن الحراك الثوري، وفي هذه الجهة اكتسحنا النظام وانعكس الاكتساح على

الأرض، منح المجاهدون فرصةً أخرى لإصلاح الوضع سياسياً بضمودهم ولكن دون أي جدوى. وأختتم بالآية الكريمة التي يدور كثير من فهمنا للمعركة حولها: "إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مائةً يَغْلِبُوا أَلْفًا" بالإضافة إلى تتمتها التي تحوي التخفيف.

فلئن حشد النظام ألفاً علينا حشد نصف العدد من المؤمنين الصابرين، ولكن إن حشد بجوار الألف مقاتل عشرة دبلوماسيين! سيتوجب علينا وفق الآية حشد نصفهم وهذا مالم نفعله.

ولئن حشد أيضاً خمسة قنوات إعلامية تغطيه دولياً وتزوج لروايتها، سيكون علينا حشد قنوات مقابله. ولئن حشد مندوباً روسيأً وصينياً وإيرانياً ينافح عنه في المحافل الدولية، سيكون علينا حشد مندوبيين في المقابل. وكل هذا لم نفعله! فلم تتحقق شرط الآية الكريمة! وبالتالي لانستحق النصر.

اليوم علينا أن ننشد النجاة وأن نحصلها بأيدينا، ولن ننجو مالم نسد الثغرات المذكورة أعلاه. نسأل الله التوفيق والسداد لهيئة المفاوضات بجولاتها على تقدمنا للعالم كشعب يريد حقه! لا كما يقدمنا بقية العالم: كحفنة من المتطرفين! ولها أعطى العالم الضوء الأخضر لروسيا في حلب من جديد، وسيعطيه لها وللنظام مراراً وتكراراً.

[شاهد من قلب الحدث](#)

المصادر: